دور التنظيمات العربية في بناء الشخصية الوطنية

سيرة القواسم نموذجا

د. نور الدين الصغير*

خلاصة

ترصد الدراسة نضال القواسم ضد الانجليز، وما حققوه من انتصارات وبطولات اصبحت دروسا تخضع للقراءة واعادة النظر في سياق تأكيد الهوية وتحديد ملامح الشخصية الوطنية.

ان فلسفة صمود القواسم وابعاد مواجهتهم للمستعمر عبر التمسك بقيم الاسلام والعروبة يدعو الى اعادة قراءة التاريخ العربي الحديث في ضوء مستجدات مناهج البحث المتطورة، تاريخية، فيلولوجية وانثروبولوجية وثقافية ودينية، وفي ضوء الوسائل المساعدة على ادراك الحقيقة بعيدا عن اي لبس او تشكيك.

وذلك من اجل تحرير كتابة التاريخ العربي الحديث من المؤثرات الاجنبية التي اساءت وشوهت صورته كما حدث مع سيرة القواسم النضالية.

---

* *أستاذ التاريخ الإسلامي والحديث- تونس*

The Role of Arab Organisation in Building the National Character:

Al Qawasim Autobiography as a Model

Dr Nour Al Deen Al Saghayer

***Abstract*:**

Tis study throws light on the struggle of Al-QAWASIM against the British and the victories and the acts of valour they have achieved. Their struggle has changed into memorable lessons that are subject to further investigation and reconsideration of the Identity Confirmation and the Defination of the Arab Nationalism. The philisophy and dimensions of the resistance and the struggle of AL-QAWASIM against the European Colonists by means of adherence to the values of Islam and Arabisminvite to reread the Modern Arab History according to the findings of the Advance approachesof Research. These include historical, philological, antropological, cultural and religious ones.

Moreover, all these wereachieved in the light of jopeful means to purely realize the truth without any sence of suspicion or doubt and to liberate the writingof the Modern Arab History from the foreign influnces which have spoiled both the historyitself and the true story od AL-QAWASIM's struggle.

المقدمة:

احتلت مسألة البناء الذاتي للشعوب ودورها في النهوض الحضاري والريادة التنموية مكانة متميزة في قراءة فلسفة حركات التحرر، كما استلهمت هذه الظاهرة طلائع فلسفة تجديد النقد التاريخي خلال الفترة الأخيرة من مراجعة وقائع وأحداث النضال العربي الحديث والمعاصر. وقد حاول عدد من المؤرخين والمهتمين بالنقد التاريخي مراجعة الأنماط النضالية للشعوب العربية، وللسلوك القيادي للأفراد الذين خلدوا بأدوراهم البطولية ونظرياتهم وأعمالهم التي كسبوا بها معارك التحرير، ومكّنوا شعوبهم من حياة العزة والكرامة. وللوقوف على مميّزات الحركة والاستفادة من نضج خبرتها واستخلاص الدرس والعبرة من سلوكياتها. وفي ضوء ما رصد لها من مناهج تاريخية نقدية فيلولوجية، وأخرى أنتروبولوجية اجتماعية وهيكلية وثقافية دينية، تمّ إثراء المعرفة الإنساتية وتجاوز نقص كانت تشكو منه المكتبة العربية.

تحاول هذه الدراسة رصد آليات قراءة جديدة لأحد أوجه نضال الأمة العربيةالإسلامية، وتتبع سبل تفاني رجالها لكسب معركة التحرر، والنهوض بالمجتمع وتحقيق الأمن والكرامة والدفاع عن الذات. ونعني بذلك نضال القواسم

ضد الإنجليز في مطلع القرن التاسع عشر. فهم الذين قدموا ببطولاتهم أروع الملاحم التي عرفها التاريخ العربي الحديث، وحققوا أثمن الانتصارات وأثروا بتضحياتهم الخبرة النضالية للشعوب العربية.

وقد شكلت تجربتهم مرجعية يُحتذى بها ويستفاد من دروسها، فكانت نبراسا أضاء مسيرة الأمة، وزكى خبرتها الجماعية، وزادها وثوقا بإمكاناتها أملا في مستقبلها وهي علي أعتاب القرن الحادي والعشرين. وقد غشي هذه الصفحات النضالية غبار النسيان والإهمال، أو تناستها الدراسات الجائرة التي ركزت عليها مراكز البحوث في الغرب. فكم نحن بحاجة إلى الدراسات النقدية الحديثة التي تنفي التاريخ من مواطن التحريف، وتبعد عنه الشبهات وتخرج به من الخلفيات الهدامة إلى الموضوعية والقيم الإنسانية الرائدة. ففي ضوء المناهج المعرفية المتطورة وحدها يتم استجلاء الحقائق، وبواسطة النقد والمقارنة يتم إدراك ما يرتجى من فوائد. ولعل هذه الدراسة الخاصة بسيرة القواسم ونضالهم تمكننا من الولوج إلى أعماق العبر والدروس التي يسديها التاريخ للإنسان والتي بفضلها ندرك ما قدمه المسلمون من تضحيات في سبيل الوطن والذود عن حماه وحمى الدين، ومن خلالها أيضا ندرك أبعاد المواجهة وفلسفة الصمود وشرف الانتماء.

الخلفية الأنتروبولوجية للمواجهة:

لقد عرفت المجتمعات العربية منذ القدم بتنظيماتها القبلية في إدارة شؤونها الاجتماعيةوالسياسية والاقتصادية. وكانت القبيلة تشكل مركزية الشرعية في النظام حيث تنسب إليها مرجعية الترتيبات التفاضلية في مستوى الأشخاص والجماعات(٢)، كما تتجلى فيها أساليب الإدارة الجماعية التي تعتمد الدين أساسا في كل أشكال التعامل بين الأفراد والجماعات. وبالرجوع إلى الحقائق التاريخية التي عرفتها المجتمعات العربية في شبه الجزيرة خاصة والوطن العربي عامة، وبالاعتماد على طبيعة التنظيمات الجماعية التي سادت منذعصور طويلة، يبدو واضحا الانصهار العضوي للمفاهيم الأخلاقية وآليات التخاطب وقيمة القيادة في مفهومها العرقي والإثني(٣). ويعتبر الدين في أبعادهِ الأخلاقية وممارساته الشعائرية المقدسة وأطر التعامل داخل منظومة التشريع السياسي من أبرز العوامل في تحديد الهوية الفردية والجماعية، ومن أصدق الموازين في تحديد أي موقف من الآخر. لذا فإن طريقة اعتماد هذه القيم تعد الوسيلة الضرورية والمحددة للنموذج السائد المعتمد في مختلف الوقائع والملزمة للخبرات القيادية: التوجيهية منها والتنفيذية في مستوى منظومة الإدارة الجماعية. ومما لا شك فيه أن تشكل الشخصية العربية، في مختلف أحقابها، جعلها متفاعلة مع إسلامها وعروبتها ومستجيبة لروح عصرها. والمتأمل في تركيبة المجتمعات العربية زمن بداية حركة الإصلاح في مطلع القرن التاسع عشر يدرك الحالة التي عرفها الإنسان العربي من حيث موقعه الخرافي، سواء في مجال العلاقة بين الإنسان والدين أو الإنسان والطبيعة؛ كل ذلك مقارنة بما تحقق في مجال مصداقية طبيعة الفكر الغربي وبنيته العقلية(٤).

والمنظرون لهذه الإشكالية، في القرن التاسع عشر، يرون أنّ العقلين الغربي

والعربي يختلفان من حيث الخصائص البنيوية وآليات التفكير والقدرة على الإبداع. فكان ما هو غربي متسما بالعقلانية، وما هو غير غربي بعيدا عن العقلانية(٥). وفي هذه التفرقة الأنتروبولوجية ترسيخ لكل قيم الحضارة الغربية المهيمنة ؛ وتمرير ضمني للمشاريع الاستعمارية القاضية بإذلال الشعوب. وفي هذا الصدد تمثل جدلية التفاضل في المنظومة الأنتروبولوجية البنيوية لـ (كلود ليفي شتراوس) والتي أفرزتها التّراكمات القيمية، حلقة مهمة ضمن خطة هيمنة التفوق العرقي، ومن بعده التاريخي للشخصية الغربية. ذلك إن مثل هذه الدراسات الأنتروبولوجية التي كانت تعد تقليدا أكاديميا في بريطانيا، وقد تغذت من الكتابات التاريخية والاجتماعية التي صنّفها الرحالة الغربيون والقائمون بمهام إدارية في مختلف أنحاء البلاد المستعمرة، كما أثرت هذه المقولات في مفاهيم النقد الحضاري خاصة النظرية المتعلقة بمقدرة الغرب الفائقة في تسيير الغير (من المتخلفين حضاريا) (٦). ولم يكن علم الأنتروبولوجيا محايدافي منهجه، بل كان ملتحما مع التاريخ(٧) في تحديد المعارف والمفاهيم الحضارية التي تبنتها المدرسة التاريخية الإنجليزية التي أفرزتها البحوث الاجتماعية الاستعمارية في وقت مبكر، والتي كانت مادة دسمة للفكر الأنتربولوجي الحديث. وكان هذا الفكر وارث التراث السوسيولوجي لـ (هربرت سبنسر) في بريطانيا خلال عصر التنوير. إن هذا التنظير الإثنوغرافي والاجتماعي لم يتناسق مع مكونات المجتمع العربي؛ خاصة في أبعادِ الروحية التي جعلت الإنجليز يصطدمون بواقع مغاير لما كانوا يأملون. وسندرك ذلك بوضوح عند تتبعنا لقضايا التحدي والاستجابة بين الإنجليز والقواسم في مناطق الخليج العربي.

التّحدّي والاستجابة :

بين عنجهية الإنجليز وتعلقهم بمقولة الهيمنة المطلقة على العالم، وبين إيمان

القواسم وإخلاصهم لدينهم ودنياهم ارتسمت على صفحات التاريخ ملاحم الخلود في تأصيل الكيان والذب عن حوزة الدين والرفض المطلق لشعار الهيمنة والاستحواذ الزاحف على الوطن العربي في بداية عهده. فما هي خلفيات فلسفة التحدي الإنجليزي؟ وما هي مظاهر الاستجابة التي أبداها القواسم وواجهوا بها عملية إرساء الأسس التي قام عليها النفوذ البريطاني؟ وسنحاول من خلال هذه الدراسة تتبع تجليات الفلسفة النضالية وبطولات القواسم وأهمية منطقة الخليج في نظر الاستحواذ الإمبريالي الذي انطلق منذ أواخر القرن السادس عشر(٨) ليشتد عوده في القرن التاسع عشر. وسوف تكون هذه المحاولة بمنزلة القراءة في قيم هذا النموذج، بعيدا كل البعد عن عملية التاريخ (الكرونولوجي) الذي يسلب بسرده للوقائع، القيمة المثالية لنبل الحدث، في إطار ما يعرف بالقراءة المتعاليةأو الميتافيزيقيا الفكرية. أضف إلى ذلك أن هذه العملية ترمي إلى إعادة (بناء التاريخ الداخلي(٩)، للفوز بتفسير عقلاني يهدف إلى إنماء المعرفة الموضوعية التي لا تتم إلا بالاستناد إلى المعارف الأخرى، ونذكر بصفة خاصة المعارف السوسيو - ديناميكية.

القواسم في سطور:

وردت أقوال وآراء كثيرة حول نسب القواسم، ويجمع النّسابون على أنهم عرب عدنانيّون ينتمون إلى القبائل النجدية(١٠) عامة وإلى الغافرية بصفة خاصة، كما قيل إنهم سمّوا بالقواسم نسبة للقاسم بن شعوة أحد قواد الفتح، أرسله الحجّاج بن يوسف الثقفي زمن الفتوح الأموية إلى عُمان لإخضاع أهله لإدارة الخلافة في بلاد الشام(١١). في حين يرى آخرون أن القواسم (الجواسم) ينتمون إلى بني غافر، وهم من السلالة العدنانية. وقد عرفوا بهذا الاسم نسبة إما إلى جدهم (القاسم) أو إلى ديار (بني قاسم)(١٢). وهذه آراء فيها شك واختلاف(١٣). وتتفق بعض

الروايات على أنهم قدموا من بلاد الرافدين من (سامراء) ليستقروا في ساحل عُمان. ويظهر نفوذهم الفعلي في مدينة (جلفار) المعروفة اليوم باسم (رأس الخيمة)(١٤)، حيث أنشأوا إماراتهم بعد معارضتهم للإمام أحمد بن سعيد(١٥) مؤسس دولة البوسعيد في عُمان والذي اعتمد على عصبيبة الهناوية؛ الشيء الذي أثار سخط القواسم فعارضوه بشدة ودارت بينهم معارك ضارية أصَّلت بعض جوانب العداء. وكانت هذه المحاولة بمنزلة التجربة الأولى لإبراز الذات وتقرير المصير اللذين عمل القواسم على تأصيلهما في المنطقة. أما عن مدينة (جلفار) التي عرفت نشأة القواسم فيذكرها الرحالة (نيبور) مبرزا قيمة موقعها الاستراتيجي: تمتد هذه الإمارة الصغيرة من رأس مسندم على طول الساحل. ويسميها الإيرانيون بلاد جلفار. وهي رأس يمتد في البحر قرب رأس مسندم. وتعلم الأوروبيون أن يطلقوا عليهم عرب جلفار(١٦). لقد بدأ وجود القواسم يتبلور ويأخذ شكله التنظيمي القيادي بداية من سنة ١٧٧٧ تاريخ اعتزال راشد بن مطر زعامة قبيلة القواسم وتولى ابنه صقر بن راشد الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لكيان القواسم باعتباره قومية تجمع بين الانتماءين العربي والإسلامي(١٧)، والذي به بدأ تاريخ البطولات من أجل بناء الذات العربية الإسلامية، وخوض غمار الجهاد في سبيل تقرير المصير وإعلاء كلمة الحق التي حاولت جحافل الغزو الأجنبي منذ القرن السادس عشر القضاء عليها وعلى السيادة العربية. فمن الهيمنة البرتغالية إلى محاولات الاستحواذ الإنجليزية(١٨)، عرفت المنطقة فترات من الجهاد المتواصل زكّاها تاريخ بطولات القواسم طوال فترة المواجهة البريطانية على الرغم من التباين في الإمكانات لهذه الإمبراطورية، فقد حاول القواسم منعها من التمتع في الأرض العربية والمياه الجوفية الخليجية، وأقلقت مضاجعها ودفعت الشر عن شعوب المنطقة ووقفت في وجه الاستعمار بكل صلابة وقوة.(١٩). وقد امتد نفوذ القواسم إلى الساحل الشرقي ليشمل قسما كبيراً من الخليج براً وبحراً. وكان

لتحالف القواسم مع بعض القبائل الأخرى، من أم القيويين مع (آل علي مروراً بشيوخ عجمان وقبائل الشميلية من ديار خور كلبا، ثم الشحوح والشرقيين والنقبيين إلى بني كعب وبني قتب من مقاطعة الظاهرة)(٢٠)، كما كان لبناء كيان القواسم الدور الفاعل في تأصيل حركة مقاومة المد الاستعماري وهيمنة الرأسمالية الاقتصادية التي أجّلت إخضاع منطقة الخليج وجعلها مركز ثقل اقتصادي أوروبي(٢١).

المواجهة وبناء الذات:

إذا كان التاريخ يسير بمبدأ التحدي والاستجابة، مثلما ينظر لذلك (توينبي) فإن تاريخ القواسم حكمته ثنائية: النضال من أجل بناء الذات والدفاع عن مقدسات الأمة وكرامتها. كما جلته طبيعة المواجهة بينهم وبين القوات الاستعمارية والهيمنة الإمبريالية التي يمثّلها الاستعمار الإنجليزي بصفة خاصة. ومما لا شك فيه أن هذه الوقائع والمواجهات كان لها تأثير كبير في صقل ملامح حركة التحرر في الخليج في وقت سبق كل محاولة للخروج من دائرة الهيمنة الخارجية في جميع أنحاء الوطن العربي، كما كان لهذه الأحداث أيضا الأثر الكبير في تشكل الشخصية العربية الإسلامية الحديثة والمعاصرة وهي تتغذى في كل مراحل المواجهة من العروبة ومن الإسلام. وبذلك أعلنت هذه التجربة عن ذاتها نموذجاً منفرداً في سجل النضال العربي فكانت كما يقول (شبنجلر) في تنظيره للتجارب التاريخية:... هي في حد ذاتها عيّنة فريدة لأحوال أهلها مهما كانت علاقتها بنظيراتها التي تفاعلت معها، ولكنها دائما تحمل في طياتها تراكمات الماضي وخبرات المواجهة حتى تعبر عن نفسها كما هي(٢٢)، أوكما ينظر المؤرخ (جيزو) للتجارب البشرية فإن صفحات نضال القواسم ارتسمت ملامحها:... في إطار التماثل الحضاري الذي تتصارعه قوى حبّ السيطرة والحرية، باعتبار السيطرة هي وجه الصراع في التاريخ والحرية

هي الإبداع ...(٢٣) وإذا كانت السيطرة من أبرز الملامح المميزة للإنجليز، فإن سمة الحرية والنضال تبقى العلامة الناصعة للقواسم. فما هي ملامح المواجهة والقيمة النضالية للقواسم ؟

نضال القواسم :

لقد حدث على امتداد حملات ثلاث ١٨٠٦، ١٨٠٩، ١٨١٩، أبلى فيها القواسم البلاء الحسن بعد عقود من الزمن انطفأت طوالها جذوة النضال العربي، في حين كان الصراع على أشدّه بين القوات الأوروبية الاستحواذية، برتغالية كانت ، أم إنجليزية وفرنسية، عرفت بدورها أعنف المواجهات خاصة بعد الثوره الفرنسية (١٧٨٩) وبين القوات المحلية من فارسية وعثمانية تسعى للمحافظة على وجودها في منطقة الخليج. وفي دوامة هذا الصراع الذي انطلقت شرار ته الأولى منذ نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، برزت قوة القواسم في واجهة الأحداث معبرة عن نفسها كظاهرة رفض للهيمنة الأجنبية التي بدآت تفرضها القوات الغربية الغازية في شكل تحالف ديني جهادي وتآمر سياسي اقتصادي. وكان لظهور القواسم في عُرض سواحل الخليج الأثر الفاعل في تغيير الثقل الاستحواذي والهيمنة المطلقة للإنجليز. والمتآمل في وقائع هذه الفترة وأحداثها يدرك أن ظهور القواسم كان متأثرا بعاملين أساسيين:

١- نتيجة الصراع القائم بين القبائل العُمانية، والذي كاد يذهب بجذوة القوة العربية، وظاهرة التحزب التي كانت متفشية بين مختلف الأتباع من غوافر وهناوية، فكانت زعامةالقواسم مطلبا ملحا لإعادة القوة إلى المنطقة وإبعاد شبح الخطر الخارجي عنها، وخاصة أن الساحل العماني قد تفرق أهله وتوزعوا شيعاً متعددة:ولا بدع إذا كان القواسم من ذلك العنصر الفاتح لعُمان وأن يطلب أنجاله الزعامة(٢٤).

٢- نتيجة الأطماع الخارجية التي بدأت تهدد منطقة الخليج، سواء كان ذلك من جانب الصراع العربي الفارسي أو الزحف الغربي على المنطقة. ومن هذا المنطلق كان للدور القيادي الذي تحمله القواسم دوافع ساهمت في صياغة:

أ- مفهوم الأمن : الذي يعتبر المرتكز الأساسي لقيام المجتمع والذي لا يتوفر إلا بالقوة سواء كانت دفاعية أو هجومية، وكل سلطة تتمتع بشرعية السيادة مطالبة بضمان أبسط قواعد الأمن في تصوره التقليدي(٢٥).

ب- الدافع الديني: ويتمثل في الدفاع عن حوزة الإسلام في وقت كان فيه العثمانيون غير قادرين على تأمين هذا الجانب ، وكانت مصر آنذاك ترزح تحت ضربات الفرنسيين وبقية العالم الإسلامي يعاني من التخلف والجمود.

ج- الاستراتيجية الاقتصادية: لا شك أن منطقة الخليج تعتبر القناة الموصلة للتجارة الآسيوية إلى المشرق العربي ومنها إلى أوروبا. فكانت تتمتع بدور ريادي جعلها محط أطماع الغزاةعبر التاريخ ، لذا كان لتصدي القواسم للإنجليز منطقه المبرر، حفاظا منهم على مصالح القبائل التي تتعاطى ركوب البحر تجارة أو صيدا.

د-السيادة العربية: يُعد ظهور القواسم في مطلع القرن التاسع عشر شكلاً من أشكال التواصل في التغيير الذي لا ينظر إليه من وجهة الصراع والتفرقة التي عصفت بالقبائل في تلك الفترة، بل يستدل عليه من وجهة نظر البحث عن الأمثل في قيادة الشعوب وتوحيد صفوفها وصيانة مصالحها وحفظ هويتها تحسبا لكل خطر خارجي. فالسيادة في المفهوم العربي تستمد قوتها من ذاتها لا من غيرها مثلما هو الحال بالنسبة لحكام الهند وعلا قتهم بالإنجليز(٢٦).

٣- قداسة الانتماء: تشكل مسالة الانتماء في الفكر العربي الإسلامي إشكالية محورية حيث مثلت منظومة تاريخية متكاملة تلازمت فيها الشخصية الفردية والجماعية، وتبلورت عبر مسار المجتمع العربي منذ عصوره القديمة لتكون مرجعية فكرية متأصلة قوامها الشعور ببعد الانتماء، والمحافظة على البنية الأصلية

للمجتمع، وإكساب الشخصية الفردية والجماعية مشاعر التعلق بمقومات العروبة والإسلام باعتبارهما الأساس الأول في بناء الهوية. وقد تجلت هذه الظاهرة في مبادئ متعددة:

❖- إعلان الجهاد من أجل الإسلام: فعلى الرغم من حرص المؤرخين على تسويغ تبعية القواسم للوهابيين التي أكسبت حركة جهادهم الشرعية وجعلتها أمراً واقعاً، إلا إن هذا التوجه لا يستقيم وأصول حركة الجهاد لدى القواسم(٢٧)؛ ذلك أننا ندرك أن الدافع الديني بين بداية المواجهة سنة ١٧٧٩ و١٧٩٠، وبين استفحالها في مطلع القرن التاسع عشر، ونخص بالذكر ١٨٠٦ و١٨٠٩ و١٨١٩، كان متأصلا عند القواسم؛ إذ «تختلف اعتداءات القراصنة سنة ١٨٠٤ عن الاعتداءات السابقة لها، إذ إن الأخيرة اصطبغت بالصبغة الدينية، وإن كان من المشكوك فيه أن أمراء نجد هم المحرضون على تلك الاعتداءات...»(٢٨)، كما ينفي هذا التفسير المؤرخُ (جون كيلي) في قوله: « كما أننا لا نتصور أن يكون اعتناق القواسم المذهب الوهابي هو الذي أثار فيهم نزعة القتال ...»(٢٩).

❖- الرنو إلى الحرية ومواجهة أي تحدٍ أجنبي يهدف إلى إخضاع أهل الخليج.

❖- اكتمال جدلية الاستجابة للتحدي من خلال إعلان الرفض والخضوع والتعامل مع أي عنصر دخيل على المجتمع العربي الإسلامي. فكان أن جرد القواسم سيوفهم وتسلحوا بالعزم والثبات لرد كل محاولة اعتداء والتمتع بحق الحياة والسيادة. وكان لمختلف محاور هذه المواجهة التاريخيةأطرها التنظيرية التي أكسبتها بعدا إنسانيا جعلتها تستجيب لمنطق التحرر باعتبار الحرية ركيزة آساسية لقيمة الإنسان خاصة في المجتمعات ذات الأعراف والتقاليد التي تمثل مرجعية أخلاقية ترنو نحو المقدس(٣٠). ومن هنا كانت الحاجة ماسة لتأصيل الشعور بالتحدي وضرورة الاستجابة وفق الصيرورة التاريخية.

مقولة القرصنة :

لقد اعتاد الإنجليز على تسمية الساحل العماني بساحل القرصنة، وذلك في مختلف الكتابات التاريخية والوثائق السياسية والإدارية والاقتصادية، العلنية منها والسرية. هذا الاستعمال يخفي أبعادا منها ما هو: عرقي ومنها ماهو سياسي وإيديولوجي إمبريالي؛ ذلك أن المدرسة التاريخية الإنجليزية في مطلع القرن العشرين بدأت تتشكل مع التيار الأنتروبولوجي الحديث المساير للمارسة الاستعمارية وتعميق الإمبريالية القائمة على احتقار الشعوب والمؤسسة على مفاهيم الحركة الدائمة للمجتمعات ، خاصة المجتمعات المتخلفة وفق نظريتهم المرسّخة للعنصرية والعرقية. أما مسالة التأكيد على لفظة (قرصنة) فيندرج ضمن دراسة آليات المجتمع وحركيته (الديناميكية) الموجهة للإيديولوجيا الجماعية (في نتاجها السالب للمجتمعات المتخلفة وفي نتاجها الموجب بالنسبة للمجتمعات الصناعية المتطورة) بمختلف أغراضها الاقتصادية والسياسية(٣١).وإذا تتبعنا لفظ- قرصان- في مدلوله الإيتيمولوجي من حيث الاستعمال الإنجليزي ووفق جدلية القراءة التاريخية التي تفترضها مدرسة المعرفة التاريخية الإنجليزية في القرن التاسع عشر وماقبله، فإننا ندرك أن هذا اللفظ له تأويلات ثلاثة:

١- سيكولوجي- اجتماعي: يقوم على العرقية والعنصرية.

٢- استراتيجي - سياسي: أساسه الدعاية للسيادة الإنجليزية وتبرئة رسالتها الحضارية التي تدّعيها في نشر السلم في ربوع العالم وإشاعة فضل إمبراطوريتها العظمى(٣٢)، يضاف إلى كل هذا اكتساب الشرعية الدولية من خلال قانون الإبحار وفرض إرادتها وفق القوانين الجائرة التي تحددها سلطتها، وخاصة أن الرحلات والاكتشافات كانت قد حازت منذ القرن السادس عشر مباركة الكنيسة ورضاء رجال الدين الممثلين للسلطة الروحية التي تعتبر المسوّغ الأوحد لطبيعة السلطة وشرعية المعرفة.

٣- هيمني- استحواذي: ويتجلى في الرغبة في تأمين سيطرتها على أبرز الطرق المؤدية إلى الهند، أكبر المستعمرات الإنجليزية، واعتبار العرب غير مؤهلين و لا يستحقون السيادة المطلقة على هذه المناطق. غير أن هذا التأويل الإنجليزي قد جوبه بتنظيرات عدد من المؤرخين العرب ونخص بالذكر منهم صاحب (نهضة الأعيان) في حديثه عن القواسم حيث يقول: «ولم تكن أعمالهم أعمال قرصنة كما حددها الخصم، فوصفهم بها، وإنما كانت حربا دفاعية لإجلاء الإنجليز عن السواحل العربية لرفضهم دفع الضرائب والرسوم المتفق عليها مع شركة الهند حين دخول سفنها إلى الموانئ العربية»(٣٣). وكانت أعمال القواسم بمثابة الاستجابة لشرعية حقوقهم، وردود فعلهم تتماشى ومنطق الحياة في ظل غياب إرادة دولية ووحدة عربية قادرة عى الوقوف في وجه هذا العدو الطاغي. يقول السيابي: «ولا يرون (أي الإنجليز) لأهل الساحل العماني حقا إلا خضوعهم وضراعتهم للأساطيل المارة بخليجهم، فلم يرض القواسم بذلك، ورجعوا إلى القانون، وإذ هو لا أثر له إذ لم تكن له مدافع مفتوحة الأفواه، مشتعلة النيران، لها دوي يدهش العالم وتقيم على الأفق غيوما ركيمة، ويرمي بشرر الصواعق. فعند هذا يصدق القانون وتقوم له دعائم عملية. ولذلك اتفق رأي القواسم على أخذ حقوقهم القانونية»(٣٤). كما أن التدخل البريطاني في المنطقة كان له ما يبرره إيديولوجيا وحضاريا من وجهة نظر الإمبريالية الجديدة التي عزمت على إدخال بعض التنظيمات والترتيبات التي تتماشى ومصالحها،حيث بدأت المنطقة تعيش على وقع الغزو الثقافي والإشراف السياسي الجديد الذي عملت على تأصيلة بريطانيا :«.. بيد أن هذه التأثيرات قد تبلورت في النهاية إلى الحد الذي أفضى إلى قلب المفهوم التقليد لحضارة الخليج، كما وضعت الأسس الأولية لتسلل الثقافة الحديثة إلى المنطقة(٣٥) التي تعد مقولة الهيمنة وانتهاك حرمات الشعوب من أولوياتها وفق التنظير الإنجليزي المبني على التجاوزات الأخلاقية واحتقار الشعوب(٣٦).

وطنية القواسم ونضالهم:

يمثل الربع الأول من القرن التاسع عشر بداية اختيار الإنجليزللقوة العربية في منطقة الخليج، وقد شجعها على ذلك:

١- سقوط القوى المتحزبة في منطقة الساحل العماني من هناوية وغوافر.

٢- تقدم الحملة الفرنسية في مصر وما حققته من نتائج تؤكد واقع الهيمنة.

٣- خوف الإنجليز من امتداد الهيمنة الفرنسية إلى منطقة الخليج العربي. هذه الحسابات التي خطط لها الإنجليز اصطدمت بقوة لم يحسب لها أي حساب، وهي قوة القواسم التي بدأت تمثل عراقيل يصعب تجاوزها بسهولة و لا بد من خطة سياسية للتعامل معها، أو الدخول معها في هدنة أو حتى معاهدة كما يستدل على ذلك من سياسة (ستون)(٣٧) الذي عرف كيف يتعامل مع القواسم في ضوء الاتفاق الذي أبرمه معهم والذي يقضي بعدم التعرض للسفن التي ترفع العلم البريطاني، وقد أبرم هذا الاتفاق مع شيخ القواسم سلطان بن صقر.

هذا الاتفاق -وحده- يقوم دليلا على حجم المواجهة التي تعرض لها التحرك الإنجليزي في مناطق الخليج من قبل القواسم، فهل يعقل تسرع دولة مثل بريطانيا وهي في أوج قوتها لطلب ودّ القواسم لو لم يكن في ذلك ما يقضّ مضجعها وينغص عليها رغبتها في التوسع؟ وما سر تنازل (ستون) عن حمولة السفينة (تريمر) التي سبق ذكرها؟ وما سّرالسماح للقواسم بدخول موانئ الهند التي حرم على القواسم التردد عليها(٣٨). وجدير بالذكر أن مثل هذه الإجراءات تعد أسلوب مناورة جديدا وحربا باردة هي من أصل السياسة البريطانية المتبعة في منطقة الخليج. وإذا كانت هذه هي طباع الإنجليز فماذا عن القواسم؟

تُعَد ملحمة القواسم النضالية حلقة متجددة من بطولات آبناء الخليج. فبعد بني كعب وما قدموه من تضحيات في مواجهة الإنجليز والفرس(٣٩) جاء دور القواسم الذي بدأ بعهد الشيخ راشد القاسمي الذي اتخذ من جزيرة قشم ورأس الخيمة مركزا لسلطته ومنطلقا لمواجهة سفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية. ومن بعده

كان عهد ابنه صقر بن راشد الذي امتد نفوذه إلى دبي والشارقة والحرة وعجمان وأم القيوين. وقد كانت هجمات الشيخ صقر بن راشد شديدة الوقع على الإنجليز، تدعمهم في كل ذلك قوة بني معين. غير أن المواجهة احتدمت بدايةً من عهد الشيخ سلطان بن صقر القاسمي سنة ١٨٠٣ وهي الفترة التي تم فيها نقل مركز السلطة من رأس الخيمة إلى الشارقة، وهي أيضا الفترة التي أصبح فيها الأسطول القاسمي من أكبر الأساطيل التي تجوب السواحل الخليجية(٤٠)، ليحافظ على المكاسب العربية الإسلامية في المنطقة، ولكي يتمكن من مواجهة الأخطار الإنجليزية، واللّه تعالى يقول في محكم كتابه:

«وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ اللّه وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللّهُ يعلمهم» (سورة الأنفال٦٠).

ولما اشتد عود القواسم وامتد نفوذهم إلى بحر العرب والسواحل العمانية وسواحل الخليج أصبحت قواتهم تهدد الإنجليز والإيرانيين وحكام مسقط وتشكل تحديات مزعجة خاصة بعد ١٨٠٠ حين انبرت تهدد الوجود الإمبريالي الإنجليزي ومن حالفه من القوات الأخرى، وكانت هذه الظاهرة طعنة في مخططات الاستعمار البريطاني، كما كان لزاماً على الإنجليز اتخاذ الإجراءات الضرورية للمواجهة طعنة سواء كان ذلك من حيث إعداد العدةأو التحالف مع من يمكن جلبه لحظيرة التآمر ضد القواسم قبل إعداد (حملة ١٨٠٦) بالتفاهم مع بعض الخونة من حكام العرب، بالإضافة إلى تفاهمهم مع حكومة فارس»(٤١). وكان القواسم قد عقدوا العزم لوضع حد للإمبريالية الإنجليزية بالمنطقة في ظل التحالفات المعاكسة للإرادة العربية الإسلامية. وبالرغم من صعوبة المواجهة فإن نداء الحق كان أقوى، قال تعالى «كُتِب عليكم القتال وهو كره لكم » (البقرة ٢١٦). وكانت المعارك التي استبسل فيها القواسم بين ١٨٠٠ و١٨١٩ من أكبر صفحات الجهاد التي يحفل بها تاريخ الأمة العربية الإسلامية. وكانت هذه الملاحم بمنزلة الخبرة التاريخية التي أثرت الشخصية العربية وأصَّلت فيها البعد الوطني.

ومن مميزات هذه المواجهة ما اكتسته من أبعاد تاريخية وفلسفية ودينية عقائدية واجتماعية وسياسية واقتصادية.

١- الأبعاد التاريخية:

إن التفسير التاريخي لهذه المرحلة النضالية يجعلنا ندرك عدة حقائق:

أ- الجرأة اللامتناهيةالتي تمت فيها المواجهة.

ب- صعوبة الظرف التاريخي الذي تمر به الأمة العربية الإسلامية في ظل الحكم العثماني الذي أصبح ينعت بالرجل المريض لعدم قدرته على حماية إمبراطوريته.

ج- نزول الجيوش الفرنسية بقيادة (نابليون بونابرت) بمصرسنة ١٧٩٨.

د- بداية الزحف الإمبريالي على البلاد العربية.

ه- ظهور حركات الإصلاح وتدهور أحوال المجتمع العربي الإسلامي.

و- تفاقم الصراع الاستراتيجي شرقا وغربا بين القوى الإمبرياليةخاصة بين فرنسا وإنجلترا.

ز- تشتت كلمة العرب وانعدام وحدتهم وتآزرهم، الشيء الذي جعلهم لقمة سائغة للأعداء.

في ظل هذه الظروف الصعبة برزت قوة القواسم لترفع التحدي الذي بدأ يفرض على الأمة العربية، فكانت جهودهم في هذا الاتجاه نموذجا خلّده التاريخ واعترف بفضله العدو قبل الصديق، حتى وإن حاول بعض المؤرخين الإنجليز تشويه صورة القواسم(٤٢).

وإذا حاولنا تتبع ديناميكية هذةالمرحلة التاريخية سواء بالنسبة للإنجليز دعاة الهيمنة والنفوذ أو بالنسبة للقواسم أصحاب الشرعية التاريخية والقانونية فإننا نقف على حقائق مثيرة في مستوى حركات النضال العالمية والعربية. وقد ميز هذه المرحلة توجه القواسم لاعتبارات عدة تمثلت في كون:

أ- بطولات القواسم تمثل الشرارة الأولى لفكرة الأمن القومي.

ب-طبيعة التوجه الفكري لهذه المرحلة يكتسي أبعادا كثيرة أهمها:

+- بداية ظهور النزعة الوطنية في أفكار الشعوب.

+- الرغبة في تقرير المصير.

+- رفض الهيمنة الاستعمارية.

+ التخلص من النفوذ الاقتصادي والثقافي الذي بدأ يضرب حصارا على المنطقة، ويبشر بتوزيع جديد لمناطق القوة في العالم.

ج- بروز الظاهرة الإسلامية في منظومة فكرية جديدة أساسها:

+- حماية بيضة الإسلام.

+- الدين للّه.

+- الجهاد من أجل فرض الذات ورفع راية الإسلام.

د- رفض منطق القوة في تقرير المصير.

هـ- الحضارة سلم لا انتهاك للحرمات.

وكانت هذه القيم مرجعية أساسية خلدت نضال القواسم في وقت لم تعرف فيه بقية الشعوب أي معنى للحرية.

أما بالنسبة للإنجليز فتتجلى أهمية هذه المرحلة في:

أ- ترسيخ مفهوم الإمبراطورية العظمى التي لا تغيب عنها الشمس.

ب- حركية الاستحواذ العالمية.

ج- الحصار المسيحي للإسلام.

د- فرض الهيمنة المطلقة.

التبشير بالرسالة الحضارية الجديدة.

٢- الأبعاد الفلسفية:

اتسمت روح النضال العربية منذ القدم بالتوق إلى الاستقلالية وتقرير المصير والاعتماد على الذات باعتبار ذلك من الصفات الحميدة. فكانت هذه الأفكار قاعدة أساسية شكلت الجانب النظري في تكون الشخصية العربية، وقد زكى هذه الظاهرة الدين الإسلامي بما أضافه من روح عقيدية وتسليم مطلق للخالق واعتقاد جازم في

البذل اللامحدود. أما الفلسفة الجديدة التي بشرت بها حركة القواسم ضد الإنجليز فإنها تمثل خط رفض وتحدٍ مستمر يرنو إلى الانعتاق والخروج من الأوضاع المتردية التي عرفتها المنطقة طوال عقود طويلة.

وبالرغم من قصر مدة المواجهة وعدم تكافؤ القوى، فإن عبرها كانت جمة، منها:

+- تحقيق الوحدة العربية.

+- رفض الهيمنة الأجنبية.

+- التصدي لكل أشكال الذل والإهانة امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم: (ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا) (٤٣).

+- تأصيل الإباء والشهامة العربية.

+- الاعتزاز بنصرة الدين الإسلامي.

+- المحافظة على الخيرات التي وهبها الله لمسلمي هذه المنطقة.

+- النهوض لإحياء المجد العربي.

٣- الأبعاد الدينية:

ما تزال ذاكرة القواسم حافلة بمالقيه المسلمون من عناء، من جرّاء المواجهة التاريخية التي فرضها المسيحيون على المسلمين(٤٤) والتي كان للإنجليز دور هام فيها. وتعد هذه المناورة الجديدة شكلا من أشكال المواجهةالتقليدية بين الديانتين، وخاصة أن الهيمنة الاستحواذية كانت قد باركتها الكنيسة منذ البداية مع البرتغاليين والإسبان. فكان من الضروري أن تكتسي هذه الملحمة خصائص الجهاد وتتميز بأبعاد الحرب المقدسة. ويُعد القواسم ورثة أسلاف ذبُّوا بكل نفيس عن حرمة ديارهم ضد غزوات الفرس والبرتغاليين ورفضوا الخضوع لمؤامرات الفرنسيين والأتراك والتصدي لكل من هان عليه أن يتواطأ ويبيع شرفه ودينه بدار الدنيا الفانية. ويكفي للاستدلال على هذا ضراوة المعارك التي استشهد فيها القواسم رجاء لقاء ربهم وهم فائزون غانمون من خيرات الآخرة. لقد عرف القواسم منذ البداية: «أن بريطانيا عدو الدين، وعدو المصالح الدنيوية، ولا ترى

لأحد حقا إلا لمن تخشاه أو تخافه... ورأى القواسم أن قتالها جهاد، والتضييق عليها في البحر عين السداد، كما أن ترويعها ومشاغلتها عن بسط أيديها في البلاد العربية واجب يفرضه الدين، ولا يصادق العدوَّ إلا مغلوب على أمره أو خالي الذهن من الدين أو ميت في حياته...». (٤٥) لذا كانت طبيعة المواجهة يحكمها منطق العيش الكريم ورفض المذلة والمهانة. وقد طال غضب القواسم كل القوى الأجنبية التي حاولت التعدي على مناطق الخليج. ومن خلال ما يذكره (لوريمر) فإن القواسم أعلنوها حربا ضارية ضد كل الجنسيات فلم تسلم السفينة الأمريكية (بيرما) والسفينتان الفرنسيتان (مالكلوي وسنترا) إضافة إلى سفن شركة الهند والسفن الإيرانية. وقد أدرك (ستون) وبعد فلسفة المواجهة التي آمن بها القواسم وأقدموا عليها راضين بتبعاتها. فهو الذي يقول أثناء زيارته لمسقط في مطلع شهر يناير من سنة١٨٠٩ بأن: « القواسم أصبحوا يشكلون خطرا على خطوط الملاحة الرئيسية...» (٤٦). وهذه صيحة فزع أطلقها عارف بشؤون المنطقة ومقدر لعواقب الأمور، تقوم شاهدا على نبل الرسالة التي آمن بها القواسم وسلموا بضرورتها إيمانا واعتقادا.

-٤- الأبعاد الاجتماعية:

للملاحم النضالية توجيه خاص للبعد الاجتماعي نظرا للارتباط الوثيق القائم بين أخلاقيات المجتمع العرفية التقليدية وبين مقولات البذل والتضحية والعطاء اللامتناهية في سبيل الفرد والمجتمع، وذلك من خلال ما تنظر له الاتجاهات الفينومينولوجية الحديثة في علم الاجتماع. (٤٧) والتي تؤمن بأن الفعل الإنساني يكتسب طابعه وقيمته من خلال المعاني الذاتية المرتبطة به والتي تتخذ لنفسها كمرجعية: منظومة الأخلاقيات الجماعية (٤٨) ذات الأبعاد التاريخية المسايرة لتطور المجتمع. ويكفي لهذا التوجه أن يقوم حجة على مركزية الشهامة والنجدة والغيرة على الأرض والإنسان، وهي التي خلد ملاحمها الشعر العربي وخلدتها أيام العرب وسلوكيات مجتمعاتنا الحديثة. وهي مقولات إن أقيم عليها الدليل فإنها تكون

المؤصل الأساسي لأبعاد النضال في فكر القواسم، الأبعاد التي تتشكل فيها وحدة الإنسان والمجتمع والتاريخ.(٤٩)

٥- الأبعاد السياسية:

كانت بريطانيا في مطلع القرن التاسع عشر، مشغولة بالتخطيط لسياستها الرامية لتحقيق أهدافها الإقليمية والعالمية، وحفظ صورة - بريطانيا العظمى التي لا تغيب عنها الشمس. وكان الخليج العربي يمثل قاعدة استراتيجية مهمة ونقطة أساسية في التوجهات البريطانية المتمثلة في إزاحة كل القوى الغربية من الخليج. وكان الصراع على أشده بين فرنسا وإنجلترا من أجل اكتساب نفوذ سياسي وعسكري في أقطار الخليج. وكان الرأس المدير للسياسة البريطانية في هذه الفترةاللورد (ولزلي) (٥٠) الذي عرف كيف يطلب ودّ حكام فارس، وفي نفس الوقت يسفّه أحلام الفرنسيين. وبالفعل تحقق لبريطانيا كل ما تريده وتأكدت سيادتها بانتزاع جزيرة (ايل دي فرانس) من أيدي الفرنسيين سنة ١٨١١. ومنذ تلك الفترة ارتسمت ملامح جديدة للمنطقة تصرف معها إمام عُمان بما يقتضيه التسليم بالأمر الواقع حيث ربط مصيره بمصير بريطانيا، ورفض هذا المنطقَ اسود البحر، القواسم، الذين صدقوا القول وأخلصوا لدينهم ودنياهم. فمن خلال التنظيرات السياسية التي حملتها أنوار الغرب، ممثلة في منطق الاستحواذ البريطاني، ومن خلال مقولة السيادة ومفهوم مناصرة الدين التي نظر لها التطبيق القاسمي، ترتسم ملامح مواجهة سيكون لها الأثر الفاعل في التاريخ العربي. وتكاد كل الوثائق التاريخية الإنجليزية خاصة تجمع على شيئين هامين:

- عنف مواجهة القواسم للإنجليز.
- وصف القواسم بالقراصنة.

والمقولتان تمثلان وجهين متجانسين لفرض الشرعية الدولية في مطلع القرن التاسع عشر، كما تُعدّان مدخلين لضرب القوى المضادة للهيمنة التي يسعى البريطانيون إلى فرضها في مختلف بقاع العالم. هذا من الجانب الإنجليزي، أما من ناحية القواسم فإن للمقولتين أبعاداً لا حصر لها. والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

+ الإعلان الصريح والمبكر عن بداية مقاومة المد الاستعماري في وقت ما تزال فيه القوى العربية الأخرى غائبة عن الوجود، أو مضروبة بعصا الذل وغير قادرة على المواجهة لأنها مسلوبة الإرادة.

+ إدراك القواسم لأخطار الهيمنة البريطانية على المنطقة.

+ الدخول في العمليات البحرية الخاطفة باعتبارها شكلاً من أشكال الجهاد التي نادى بها الدين واستلهمتها الهمم المحبّة للسلام والحرية والعدالة.

+- الرفض الكلي لمقولات الثقافة الاستعمارية الجديدة وإدخال النظام وحكم القانون الأوروبي في منطقة الخليج.

٦- الأبعاد الاقتصادية:

يعد الجانب الاقتصادي على صلة وثيقة بالجانب السياسي بوصفهما صنوين متلازمين، وإذا كانت السياسة تخدم الاقتصاد، والاقتصاد يلبي حاجة السياسة فإن تاريخية العلاقة بينهما تثبت فاعلية الآليات الاقتصادية وجدواها في فرض الأمر الواقع. ولا أدل على ذلك مما قدمه الإنجليز من تضحيات جسام في سبيل الفوز بالهيمنة الاقتصادية وامتلاك الطرق التجارية والآسيوية والأوروبية الغربية والمتوسطية. فمنذ صدور المرسوم الملكي الإنجليزي الخاص بتأليف شركة الهند الشرقية، والمؤرخ في ٣١ ديسمبر ١٦٠٠، بدأت السيطرة الإنجليزية تظهر إلى الوجود وتعمل على ترسيخ التبعية لمناطق النفوذ الاقتصادي. وكانت تجارة المحيط الهندي محور اهتمامها، كما كانت للخليج العربي الأولوية في السياسة البريطانية وذلك لعدة اعتبارات أهمها:

- الموقع الاستراتيجي للمنطقة.
- سهولة الربط بين المواصلات البرية والبحرية.
- أهمية تجارة الهند وشرقي أفريقيا، خاصة تجارة الرقيق.
- ضرورة تأمين الاتصال بالهند عن طريق الخليج.
- تسهيل مراقبة مصالحها بالشرق الأوسط.
- قطع الطريق أمام الهيمنة الغربية الأخرى من برتغالية وهولندية وفارسية.

وعن طريق تركيا وفارس استطاع الإنجليز فرض حصار اقتصادي على المنطقة، وأصبحت شركة الهند الشرقية متحكمة في كل الحركات التجارية والتي كانت تتراوح بين المشاركة الفعلية وبين حماية التجارة والتجار.

وكان أسطول الهند أي أسطول بومباي الأسطول الملكي يشرفان على سير عمليات التوجيه والحماية.. وبهذا العمل ضمنت بريطانيا هيمنتها الاقتصادية على شرايين التجارة وأسواقها في غربي آسيا، من الهند إلى الخليج، وحققت نجاحا كبيرا في فرض اقتصاديات السوق في أغلب موانئ هذه المناطق. كما فازت بمبايعة شيوخ القبائل العربية وفرض الوصاية عليهم على امتداد السواحل الخليجية. وكأن هذا العمل أي الاتفاقيات والمعاهدات التي حصلت عليها بريطانيا أو فرضتها، تعتبر النتيجة القصوى في البناء الهيكلي والصياغة الفعلية لسياسة التبعية الاقتصادية التي طبقتها بريطانيا في الخليج طوال القرن التاسع عشر، وبصفة خاصة نظام الهدنة الذي قننت له بريطانيا واتخذته سندا شرعيا يبرر ضرورة وجودها على الدوام.

٧- الأبعاد الفلسفية لحركة القواسم:

تعد ردود فعل القواسم واستجابتهم للتحديات التي فرضتها الإمبريالية البريطانية الشرارة الأولى لحركات التحرر فى العالم العربي. ولا نغالي إن قلنا بأن هذه الحركة التحررية قد ضمنت لنفسها رصيد أول قوة نضالية أعلنت رفضها للتحديات الإمبريالية على الرغم من عدم تكافؤ القوى، ويعتبر الرصيد الفلسفي والمد المعنوي لهذه الحركة من أبرز المؤسسين لبناء الذات في الفكر العربي. وتعود إشكالية بناء الذات إلى فلسفة المواجهة التي التزم بها القواسم وآمنوا بها ونافحوا عنها. وتتشكل ملامح هذه المنظومة في الدلائل التالية:

- صدق إيمان القواسم وإخلاصهم لدينهم ودنياهم.
- جرأة القواسم ورفضهم المطلق للوصاية الأجنبية: «..وللقواسم ما ليس لغيرهم من البسالة وارتكاب الأمور الهامة...»(٥١).

- جمع قيادة القواسم لكل ما تتحلى به الشخصية العربية الإسلامية من قيم وفضائل ألزمتها اتباع ما جاء به الدين الحنيف.

- بُعد نظر القواسم وتطلعاتهم المستقبلية التي جعلتهم يدركون قيمة بلادهم وأهميتها إلى جانب ما يخفيه الإنجليز من دهاء سياسي وتآمر ضد المصالح العربية.

- شخصية الشيخ صقر بن راشد وأثرها في صقل نفوس أتباعه بما غرس فيهم من روح البذل والعطاء.

- دور الشيخ سلطان بن صقر في مواصلة الرسالة الحضارية التي التزم بها القواسم بما كان يجتمع في شخصه من صفات أهّلته لأن يكون قائدا كيف لا وهو الذي: «... كان داهية زمانه...»(٥٢).

- روح البذل والعطاء بدون حدود.

كل هذه الصفات اجتمعت في القواسم فكانت لهم صولات وبطولات. وقد تعهد التاريخ بصيانة ما صنعه الرجال من إرث نضالي، لأن في ذلك من الأمجاد ما يرفع همم من أصابهم الوهن وكبل قلوبهم اليأس والقنوت، فبطولات القواسم: «دروسٌ يجب أن تقرأ بعناية من أجل صنع مستقبل جيد...»(٥٣).

- الإيمان المطلق بضرورة تقرير المصير وضرب المثال في صياغة حتمية الاعتماد على الذّات وبناء الشّخصية الوطنية.

الخاتمة

من خلال هذه النظرة السريعة التي تمثل تلخيصا لمشروع بحث مطول حول تاريخ التنظيمات العربية ودورها في تشكل الشخصية الوطنية في التاريخ المعاصر، ومن خلال تفحصنا لنموذج نضال القواسم ودورهم في حركة التحرر الخليجية، يبدو لنا واضحا الدور الطلائعي الذي تحمله القواسم في وقت عزَّفيه الجهاد، واستكان الجميع لضروب الجهل والخنوع. والمتمعن في أحوال هذه الحقبة التاريخية يدرك أهمية إعادة قراءة التاريخ العربي الحديث في ضوء مستجدات طرق البحث المتطورة واستعمال الوسائل المساعدة على إدراك الحقيقة، وتعرية كل لبس وتشكيك، ومن ثم تحرير كتابة التاريخ العربي من المؤثرات الأجنبية التي أساءت إلى تراثنا ولا يمكن أن نحقق الأمن في البحث العلمي إلا:

- بإعادة قراءة تاريخنا قراءة جدية.
- إثراء مناهج البحث بكل المعارف والعلوم التي تساعدنا على إدراك الحقيقة مثل: النقد والمقارنة والاستعانة بالعلوم الإنسانية الأخرى كالأنتروبولوجيا والفيلولوجيا والفينومينولوجيا الاجتماعية.
- رصد تصورات وبرامج تخضع لقيم ذاتية وتعمل على تجاوز كل الأخطاء والهفوات التي عرفتها كتابتنا للتاريخ.
- تحمّل الأمانة التاريخية بكل صدق وإخلاص.
- ضرورة تجاوز كل العوائق الثقافية والإيديولوجية والمؤسساتية والمعرفية التقليدية في مختلف مستوياتها وتصوراتها النظرية وأدواتها المنهجية وأهدافها التطبيقية قصد تأسيس اتجاه تاريخي شمولي عربي إسلامي في منطلقاته وأهدافه.
- كشف النقاب عن كل الكتب والوثائق المخطوطة المتعلقة بتاريخنا قصد تحقيقها وإفادة الأجيال بثرائها المعرفي.
- إخراج المواطن العربي من العزلة المعرفية التي عانى منها طويلا وتبصيره بعديد الحقائق التي مسخت صورتها القوى الاستعمارية.
- الاعتناء أكثر بتاريخنا التراثي والإسلامي الذي هو تاريخ أمتنا والحرص على إطلاع أجيالنا الجديدة على مكوناته حتى يدركوا أسراره وخباياه ويكتشفوا أسرار عظمته وإسهاماته الفاعلة في المنظومة الحضارية العالمية.

المراجع والهوامش

١- تمثل هذه الدراسة خلاصة بحث مطول حول قضايا النضال والحركات التحررية في الخليج ودورها في تكوين الشخصية العربية الإسلامية الحديثة والمعاصرة، كما تمثل قراءة أنتروبولوجية وتاريخية وفينومينولوجية اجتماعية لرصد بعض المفاهيم والتطبيقات السائدة في مجال التاريخ والاجتماع والموجهة نحو بناء الذات وإعلان السيادة.

٢- انظر:

Du mont L: introduction
a deux theories d anthropologie,Paris, La Haye, mouton 1971

٣- لمزيد من المعلومات، راجع القسم الأول من:

Barth - F: Political Leadership among swat Pathans,London, Atholone Press 1959.

٤ - راجع في ذا المجال:

Al - Turki - The women in Saudi Arabia - 1968.

Ezzine - A beyond ideologie and theology. 1977.

كلود ليفي شتراوس: العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد. بيروت. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٧٣.

٥- انظر في هذا المجال:

Claude - levi - Strauss The sauvage mind 1962

٦- من أمثلة هذا التنظير المتعالي ما ذكره (جون مالكولم) بخصوص قبائل الساحل الجنوبي للخليج، خاصة عندما يربط بين ظاهرة القرصنة وظاهرة الفقر والطمع، فهو يقول: «وإذا عرفنا أن هذه القبائل كانت تعيش حياة البؤس والفاقة

والتقشف وهي ترى السفن التجارية المحملة بالثروات التجارية تمر أمامهم عبر الخليج فإننا لن نستغرب ذلك لأنهم قوم بدائيون يعيشون في الصحراء ومن ثم فإنهم يتصرفون وفق ما تمليه عليهم غريزتهم» . راجع: جون مالكولم: تاريخ فارس. طبعة لندن ١٨١٥.

٧- حول طبيعة العلاقة بين التاريخ والأنتروبولوجيا وأثر ذلك في توجهات المدرسة الإنجليزية: راجع:

Doglas. M The world of Goods - harmondsworth, Penguin, 1980

٨- بعد غزو الهند وإقامة الحكومة الإنجليزية فيها صدر المرسوم الملكي الإنجليزي بتأليف (شركة الهند الشرقية) في ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ ومنها بدأ التخطيط لإخضاع الخليج العربي.

٩- إن إعادة كتابة التاريخ المحلي أو الإقليمي أو الداخلي لابد أن يعتمد مذهب التكذيب والتشكيك بغية الوصول إلى الحقيقة. ولا أدل على ذلك من نجاح هذا المذهب في تاريخ العلوم، وهي المنهجية التي سلكها العالم (لاكاتوس) عند قراءته لآراء ونظريات العالم (بوبر) الخاصة بتاريخ العلم والفلسفة.

راجع في هذا المجال:

Poper - K, objective knowledge an evolution nary approach.
Clare nton press oxford 1972.

وأيضا:

Lacatos, falcification and the methodology of research programmes.
Cambridge - 1972.

١٠- لعل هذا يعود إلى اعتناق القواسم للدعوة الوهابية. انظر: عبدالقوي فهمي: القواسم ونشاطهم البحري ١٧٤٧ - ١٨٥٣. رأس الخيمة ١٩٨٣ - ص٣٩ - ٤٠.

١١- سالم بن حمود السيابي: إيضاح المعالم في تاريخ القواسم - ط١ - ١٣٩٦ - ١٩٧٦- ص٣٦.

١٢- سليم طه التكريتي: المقاومة العربية في الخليج العربي. بغداد - دار الرشيد للنشر - ١٩٨٢ - ص٩٥.

١٣- من خلال بعض الدراسات التي هي بصدد الإنجاز، ومن خلال ما توصل إليه البحث والتحقيق في المخطوطات، يبدو أن للقواسم صلة وثيقة بآل البيت، ومن ثم فإن الاستقراءات المطروحة لا تفي بالغرض لبلوغ الحقيقة.

١٤- محمد مرسي عبدالله: دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها - الكويت - دار القلم - ط١ - ١٩٨١ - ص ١٢٠.

١٥- بكنجهام: حكم أحمد بن سعيد - إمام عُمان - مجلة الجمعية الملكية الآسيوية - ١٩٤١.

١٦- راجع كتاب الرحالة:

NEIBUHR - M: TRAVELS IN ARABIA - EIDINBURGH - 124.

١٧- السيابي: إيضاح المعالم - ص - ٣٠.

١٨: تجلى هذا الاستحواذ فكرا وتطبيقا بعد حرب السنوات السبع التي انتهت لصالح إنجلترا ووفرت لها الانفراد بالمنطقة بعد إبعاد الفرنسيين بموجب صلح باريس في ١٠ فبراير ١٧٦٣.

١٩- خالد بن محمد القاسمي: دراسات في تاريخ اليمن والخليج - بيروت - لبنان - دار الحداثة للطباعة والنشر ١٩٩٣ - ط١ - ص ١٣٩.

٢٠- حول موضع التكتلات القبلية راجع: هيوز توماس: السجلات التاريخية ومعلومات عن أقطار الخليج - طبعة بومباي ١٨٥٦ (القبائل الغافرية والقواسم).

- التقارير السنوية الإدارية للممثلية البريطانية في الخليج والوكالة البريطانية في مسقط خاصة مذكرات عن قبائل عمان وقد وردت فيها إشارات عن بعض التنظيمات الخاصة بالقبائل على الساحل الشرقي.

- تقرير اللفتنانت كولونيل اسميل.



- تقرير روس عن سواحل عمان من ١٧٢٨- الى ١٨٨٣

٢١- والسبب في ذلك اندلاع حرب سنة ١٧٩٣ والتي غيرت نسبيا الاستراتيجية الاقتصادية إلى بسط نفوذ سياسي وعسكري يضمن فاعلية اقتصادية أكثر.

٢٢- راجع مقال:

Spengler Oswald, Declin... In Encyclopedie Francaise - T, 20 - (20, 10 - 15)

٢٣- راجع مقال:

Guizot Francoes,

Histoire de la Civlisation - in Encyclopedie Francaise - T: 20

٢٤- السيابي: إيضاح المعالم . ص ٤٢.

٢٥- انظر تطور هذا المفهوم عند: الفن توفلر: تحول السلطة - ليبيا - الدار الجماهيرية للنشر - ١٩٩٢.

٢٦- كان حكام الهند زمن الهيمنة الإنجليزية يستمدون قوتهم من نفوذ الأجانب وهيمنتهم وهي السياسة المعروفة بسياسة الملوك الكبرى. راجع في هذا المجال:

TOLRA - WARNIER,

ETHNOLOGIE, ANTHROPOLOGIE - PARIS - PUF - 1993 - P: 141.

٢٧- تنفي وثائق مجلس إدارة شركة الهند الوارد تقريرها في مجلد ١٩٢ من مانيستي إلى جرانت سكرتير حكومة بومباي بتاريخ ١٩ - ٤- ١٨٠٥ علاقة الجهاد القاسمي بالتوجهات الوهابية حيث يقول: «لا أتصور أن التصرف الأخير للعرب القواسم في الاستيلاء على السفينتين (تريمر) و(شانون) والمملوكتين لصامويل مانيستس وكذلك الهجوم على السفينة - مورننجتون: كانت نتيجة لرغبات أو أوامر شيوخ الوهابيين.

٢٨- جون كيلي: بريطانيا والخليج - ١٧٩٥ - ١٨٧٠ - ترجمة محمد أمين عبدالله

- القاهرة - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - ١٩٧٩ - ج١ - ص: ١٦١. ٢٥ - جون كيلي: بريطانيا والخليج - ج١ - ص ١٧٠.

٢٩- جون كيلي: بريطانيا والخليج - ج١ - ص ١٧٠

وما تبعها من الإشارات إلى التقارير والتعليقات.

٣٠- راجع المفاهيم الخاصة بالمجتمعات القديمة ضمن تنظير:

FORTES - M: AFRICAN

POLITOCAL SYSTEMS - UNIV . PRESS - OXFORD - 1940.

٣١- لمعرفة أوسع وأكثر دقة حول اتجاهات المدارس الأنتروبولوجية - راجع:

DELIEGE - R,ANTHROPOLOGIE SOCIALE ET CULTURELLE

BRUXEELLES - 1992.

- ٣٢- في تعريف القرصان بكونه يحترف السلب والنهب نجد الكثير من العبارات التحقيرية النابية، ويندرج هذا التنظير ضمن التوجه التاريخي والاجتماعي التقليدي الذي غذى المنهج البنائي - الوظيفي في موضوعات المجتمع والتنظيمات التقليدية من خلال كتابات الباحثين الإنجليز.

٣٣- وذلك لتبرير تواجدها تحت ستار السلم العالمي حيث يستعمل لفظ - قرصان - للتدليل على خطورة هذا العنصر الذي يهدد المجتمع المتطور، ولهذا اللفظ وقع نفسي سيكولوجي لدى الأمم والمجتمعات.

٣٤- السالمي محمد بن عبدالله بن حميد: نهضة الأعيان - ص ١٤.

٣٥- السيابي: إيضاح المعالم - ص ٤١.

٣٦- روبرت جيران لاندن: عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا - ترجمة محمد أمين عبدالله - طبع وزارة التراث القومي بسلطنة عمان ١٩٨٨ - ص ٨٢.

٣٧- معظم المؤرخين العرب انساقوا وراء إيديولوجيا المنظومة الإنجليزية المتهمة أصحاب الحق بالقراصنة. فكان حديثهم عن القرصنة وعن القواسم

القراصنة. راجع: الدكتور فؤاد سعيد العابد: سياسة بريطانيا في الخليج العربي - الكويت - منشورات ذات السلاسل.

٣٨- هو (دافيد ستون) الذي خلف الكابتن (بوجل) في الإشراف البريطاني على منطقة الخليج بداية من ١٨٠٠ ولمدة ثماني سنوات، كان يعمل فيها على إرساء قواعد النفوذ البريطاني وإخضاع مناطق الخليج كليا للإدارة الإنجليزية.

٣٩- وثائق إدارة شركة الهند الشرقية لسنة ١٨٠٥ - ولمعرفة طبيعة المعاهدة - راجع:

AOTCHISON (-C-U):A COLLECTION OF TRAITES - ENGAGEMENTS AND SANADS RELATING TO INDIA AND NEIGHBOURING COUNTRIES - CALCUTTA 1909.

٤٠- راجع أعمال:

WILSON - A - T - : THE PERSIAN GULF - LONDON - 1956.

٤١- سليم طه التكريتي: المقاومة العربية - ص ٩٩ -

٤٢- راجع في هذا الغرض:

WELLESTED - J-R: TRAVELS TO THE CITY OF CALIPHS ALONG THE SHORES OF THE PERSIAN GULF - LONDON - 1840.

وقد ورد في هذا الكتاب ما يلي: «فيما يتعلق بالقواسم فإنني لا استطيع أن أتصور أن هؤلاء الناس الذين ليست القسوة من طبيعتهم أن يتخذوا من الوحشية والعنف سبيلا للتخلص من أسراهم «ص ١٠١.

٤٣- هكذا ورد ذكر الحديث، ويبدو أنه ضعيف. ولم يرد ذكره في الصحاح.

٤٤- نذكر منها خاصة الحروب الصليبية وطرد المسلمين من الأندلس.

٤٥- السيابي: إيضاح المعالم - ص ١٣٠.

٤٦- جون كيلي: بريطانيا والخليج - ج١ - ص ١٨٥ -

٤٧- وفق نظرية التطابق التاريخي بين سلوكيات الفرد وانطباعات الآخرين أو

الترادف الاجتماعي. راجع في هذا المجال نظريات:

Schutz - A - : the phenomenolugy of the social world - north western university press - 1967 - p:89

٤٨- المرجع نفسه وذلك من خلال النقد الموجه لمنهجية (ماكس ويبر)

٤٩- وذلك وفق نظرية (باسي) - راجع:

Paci-E- :the function of the sciences and meaning of man - evanston - moth western university- press - 1972.

٥٠- يعتبر (ولزلي) من خلال مراسلاته أنه كان يمثل أكبر دعاة سياسة التوسع وتقوية النفوذ البريطاني بمنطقة الخليج العربي. راجع في هذا الصدد أفكار (ولزلي) - رسائل ولزلي من خلال المجلدات التي جمعها (وليام كيرك باتريك) مع (مالكولم وفورت وليام) سنة ١٧٩٩ - مراجعة سكرتارية الحاكم العام.

٥١- السيابي: إيضاح المعالم - ص ١٨٤.

٥٢- المرجع نفسه - ص ١٤٨.

٥٣- خالد بن محمد القاسمي: دراسات في تاريخ اليمن والخليج - ص ١٤٥.